محاضرة:

الفحولة

تمهيد:

نالت قضية الفحولة اهتمام النقاد القدامى، وتردّد صداها في مختلف مراحل التفكير النقدي القديم، ويعدّ الأصمعي من أوائل النقاد الذين عالجوا قضية الفحولة في كتابه فحولة الشعراء، فقد حاول الإلمام بأبرز معايير الفحولة، وأسبابها، كما اهتم بالقضية كثير من النقاد بعده كابن سلاّم الجمّحي في كتابه طبقات فحول الشعراء الذي أنزل فيه فحول الشعراء مراتب، وطبقات بحسب توفّر أسباب الفحولة، والجودة في أشعارهم، كما أشار نقاد آخرون لقضية الفحولة في سياق الحديث عن بعض الشعراء، وسمات أشعارهم، ومدى براعتهم، فقد تحدث الجاحظ مثلا عن براعة بعض الشعراء وتقدّمهم عن غيرهم، وكذلك فعل ابن قتيبة وغيرهم من النقاد، الذين خاضوا في الحديث عن قضية الفحولة، خاصة وأنها ترتبط بقضايا أخرى على نحو مباشر كقضية الطبع والصنعة، وعمود الشعر، وقضية القدم والحداثة.

1-مفهوم الفحولة

أ-الفحولة لغة:

الفحولة جمع فحل، والفحل: هو الذكر من كل حيوان، جاء في جمهرة اللغة: الفَحْلُ من الإبلِ وغيره: الذكر المستفحِلُ، واستفحَل الأمرُ إذا غَلُظَ. وفحوُلُ الرّجالِ: ذَوُو النّجدةِ منهم. والفحيلُ: فَحلُ الإبلِ إذا كان كريما منجباً في ضرابه. وجاء في مقاييس اللغة:" الفَاءُ والحاءُ واللاّمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ذَكارَةٍ وقُوّةٍ، من ذلك الفحلُ من كلّ شيءٍ، وهو الذّكرُ الباسلُ. وزاد ابن منظور:" فُحول الشعراء: هم الذين غَلَبُوا بالهجاء من هجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كلّ من عارض شاعرا فغلب عليه، مثلُ علقمةَ بنِ عبدةَ، وكان يسمى فحلا لأنه عارض

امرأ القيسِ وقيلَ: سُمّيَ علقمة الشاعر الفحل لأنه تزوّج بأمّ جندب حين طلّقها امرؤ القيسِ لمّا غلّبته عليه في الشعر، والفحول: الرّواة، الواحدُ فحلٌ"

ب-الفحولة في الاصطلاح النقدي:

انتقلت لفظة الفحولة من دلالتها الحسية إلى الدلالة المعنوية المرتبطة بالشعراء، ويعدّ الأصمعي (ت216هـ) أوّل من أشار إلى معنى الفحولة، فعن أبي حاتم سهل بن محمد قال:" سمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب غير مرّة يفضل النابغة الذبياني على سائر شعراء الجاهلية، وسألته آخر ما سألته قبيل موته: من أول الفحول؟ قال: النابغة الذبياني، ثم قال: ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس:

وَقاهُمْ جَدُّهُمْ ببَني أَبيهِمْ وبالأَشَقَّينِ ما كانَ العِقابُ

قال أبو حاتم: فلما رآني أكتب كلامه فكر ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتّبعوا مذهبه، وكأنه جعل النابغة الذبياني من الفحول.

قال أبو حاتم قلت فما معنى الفحل؟ قال: يريد أن له مزية على غيره، كمزية الفحل على الحقاق". والحقاق: جمع حِقٍ، وهو الجمل الذي استكمل ثلاث سنوات، بحيث يصلح للخدمة والركوب. ويتّضح من قول الأصمعي أنّ الفحولة تتحقّق بأمرين في تصوّره:

1-التقدّم والشرف على الشعراء.

2-القهر والغلبة في ميدان الشعر.

ولم يحدّد الأصمعي معنى الفحل تحديدا دقيقا، فقد تكون الكثرة في النتاج الشعري دليلا على الفحولة كقوله عن معقر البارقي:" لو أتمّ خمسا، أو ستّا لكان فحلا" وتعليقه على أوس بن غلفاء:" لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول" وتعليقه على سلامة بن جندل:" لو كان زاد شيئا كان فحلا".

وقد يكون الفحل من يتطرق إلى صفات الديار، والرحل، والهجاء، والمديح والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر، والخيل، والحروب، والافتخار. قال الأصمعي:" طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لانَ، ألا ترى حسان كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي، وحمزة، وغيرهم لانَ شعره، وطريق الشعر هو طريق الفحول من مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة" وكأنّ الفحولة عند الأصمعي من صفات شعراء ما قبل الإسلام.

وقد تكون الفحولة في تصور الأصمعي الإجادة في الشعر كما في تعليقه على لبيد. وأوّل الفحول عنده امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وقد ذكر غيره من النقاد القدامى الشاعر الفحل، ولكنهم لم يحدّدوا درجته، وإن كان أعلى من غيره، ووضعه الجاحظ في أوّل طبقات الشعراء الأربع قال: "والشعراء عندهم أربع طبقات فأولهم الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التّام. قال الأصمعي: قال رؤبة: الفحولة هم الرواة، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعرور".

ووصف ابن سلاّم بعض الشعراء بالفحولة مثل أوس بن حجر، وأبي ذؤيب الهذلي، وعلقمة الفحل، والأسود بن يعفر، والمخبل، والقطامي، وكُثيّر عزة، وإذا صحّ عنوان كتابه" طبقات فحول الشعراء" كان الفحل هو الشاعر الكبير الذي يتفنن في شعره، ويجوّد فيه، ويحسن القول. ولم يفصح ابن قتيبة، وابن المعتز، والثعالبي عن معنى الفحل، وإنما قالوا إنه مثل كعب بن زهير، وعلقمة بن عبدة، والعتابي وفعل مثلهم أبو الفرج الذي عدّ من الفحول أمثال عدي بن زيد، والحطيئة، وأبي ذؤيب، ودريد بن الصمة، وكُثير، وأوس بن حجر، والطرماح، ومعن، والمخبل، والطفيل الغنوي، وأبي خراش، وعبيد بن الأبرص، والراعي. فالفحل عند النقاد القدامى هو أعلى درجة الشعراء وأرفعهم فنّا وشأنا.

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده نصا للأصمعي يذكر فيه شروطا ينبغي توفرها في الشاعر حتى يكون فحلا وهي " أن يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض، ليكون ميزانا له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه والنسب وأيام

الناس، ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذمّ" فالأصمعي يقرّ بأنّ فحولة الشاعر لا تتحقّق إلاّ بامتلاكه مجموعة من الشروط تعدّ في مجملها سلاحه في صناعة الشعر وهي:

1-رواية الشعر.

2-سماع الأخبار.

3-معرفة المعاني.

4-معرفة الألفاظ.

5-معرفة العروض.

6-العلم بالنحو.

7-العلم بأنساب العرب وأيامهم.

2-معايير الفحولة:

اعتمد النقاد القدامى على معايير نقدية في حكمهم على فحولة الشعراء وكنّا في موضع سابق توقفنا عند بعض المعايير التي اعتمدها ابن سلاّم الجمحي في إنزال فحول الشعراء منازلهم في كتابه طبقات فحول الشعراء ومنها:

-كثرة القصائد الطوال.

-الأسبقية والتأثير في الشعراء.

-تعدّد الأغراض الشعرية.

-تنوع بحور الشعر وأوزانه.

-الجودة والبراعة.

هذه أبرز المعايير والأسس النقدية التي استند عليها ابن سلاّم الجمحي في ترتيبه للشعراء. وهي قريبة من المعايير التي اعتمدها الأصمعي قبله في حديثه عن الفحولة. والتي يمكن إجمالها في:

أ-معيار الجودة:

يتضح معيار الجودة في حكم الأصمعي لامرئ القيس حين سأله أبو حاتم السجستاني من أول الفحول؟ قال: النابغة الذبياني، ثم قال: ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس:

وَقاهُمْ جَدُّهُمْ ببَني أَبيهِمْ وبالأَشَقَّينِ ما كانَ العِقابُ

قال أبو حاتم: فلما رآني أكتب كلامه فكر ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتّبعوا مذهبه. لقد جعل الأصمعي امرأ القيس في مقدمة فحول الشعراء لجودة شعره، ولكونه صاحب الفضل على بقية الشعراء، وله تعود الأسبقية في سنّ بعض تقاليد الشعر.

ب-معيار الزمن:

اعتمد الأصمعي معيار الزمن في الحكم على فحولة الشعراء، وتتضح نظرته من خلال تقديمه للعديد من الشعراء لقدم زمنهم ولجاهليتهم على وجه الخصوص، فهو يرى أن الشاعر الجاهلي له الفضل في سنّ تقاليد الشعر، وله السبق في ابتكار المعاني والصور والتشبيهات وقد سأله تلميذه السجستاني عن فحولة جرير والفرزدق، والأخطل فقال الأصمعي: هؤلاء لو كانوا في الجاهلية لكان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئا لأنهم إسلاميون".

وقد توقف النقاد بعد الأصمعي عند معيار الزمن في الحكم على براعة الشعراء، وفحولتهم بين موافق لرأي الأصمعي، ومخالف له، فوجدنا ابن قتيبة مثلا يصرّح في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" أنّه ينظر لشعر الشاعر، وجودته لا لزمنه، وعصره وغيره كثير من النقاد الذين حكموا لصالح جودة الشعر بعيدا عن معيار الزمن.

ج-معيار الكثرة والكم:

اعتمد الأصمعي على معيار الكثرة والكم في الحكم على فحولة الشاعر، ويعني أن يتوفر في نتاج الشاعر عدد من القصائد الطويلة، فلا يمكن أن يعدّ الشاعر فحلا بقصيدة شعرية واحدة وإن اجتمعت فيها معالم الجودة والبراعة، فقد كان شرط الكثرة في العدد أبرز معايير الفحولة عند الأصمعي ولعلّه أوّل النقاد الذين اشترطوا هذا المعيار لإثبات الفحولة. وكثرة القصائد الطويلة أساس نقدي يحمل في طياته جودة القريحة، وقوة الموهبة، والقدرة على النظم في أغراض متعددة، وأبحر متنوعة.

وقد استبعد الأصمعي بعض الشعراء من فئة الفحول بسبب قلة أشعارهم من ذلك موقفه في الحادرة الذبياني إذ قال عنه: لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلا، وقصيدة الحادرة هي التي يقول في مطلعها:

بكرت سمية غدوة فتمتع وغدت غدوّ مفارق لم يرجع

وسئل عن المهلهل، فقال: "ليس بفحل، ولو كان قال مثل قوله: **أليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري**، كان أفحلهم. ولم يحدد الأصمعي الكم الذي يقصده ليكون المهلهل فحلا.

وعلى الرغم من أنّ هذا المعيار يبدو موضوعيا لكونه يضمن أسسا نقدية أخرى من شأنها الحكم على فحولة الشاعر كتوفر جودة القريحة، والقدرة على النظم في الأغراض والأبحر المختلفة، إلا أنّ هناك من النقاد استوقفته قضية ضياع الشعر القديم بسبب غياب التدوين، وهو ما يشكّك في موضوعية هذا المعيار.

وإلى جانب هذه المعايير فقد كانت هناك أسس أخرى أشار إليها الأصمعي للحكم على فحولة الشاعر من ذلك اتّباعه لمنهج وطريقة القدامى في نظم الشعر، وتأثيره في من جاء بعده من الشعراء، وكذا القوة والغلبة في ميدان الهجاء، والجزالة وهي في مجملها معايير تشير إلى البراعة، والقوة والأسبقية وهي صفات ترفع صاحبها إلى فئة الفحول من الشعراء في تصور الأصمعي.